

## ٣١ - المصريون المحدثون

### شمائلهم وعاداتهم

في النصف الأول من القرن التاسع عشر

تأليف المستشرق الإنجليزي اورور وليم لين

للأستاذ عدلي طاهر نور

تابع الفصل العاشر - « الطرافات »

لا يجوز عقلاً أن تثير هذه الأوهام التي توجد في أذهان شعب جاهل دهشتنا؛ ولكن المصريين لا يظهرون احتراماً خرافياً للكائنات الوهمية فحسب، وإنما يجاوزون ذلك إلى بعض أفراد من البشر مثلهم . وكثيراً ما يكون ذلك التقديس إلى أقل الناس استحقاقاً له<sup>(١)</sup> . فيعتبرون الأبله أو المجنون مخلوقاً عقله في السماء وجسده يختلط بالبشر . ويمدونه لذلك ولياً . ومهما ارتكب الولي المشهور من الخطايا - وكثير منهم يحالفون الدين - فهي لا تؤثر على قداسته إذا لم تعتبر نتيجة مجرد عقله من الأشياء الدنيوية ، فروحه أو قواه العقلية كلها مستغرقة في التقوى ؛ ولذلك تُترك شهوته بلا رقيب . ويحبس المجانين الخطرون ؛ أما هؤلاء الذين لا خطر منهم فيعتبرون أولياء . وأكثر أولياء مصر للشعورين متوهون أو بله أو خداعون . ويسير بعضهم عمارة هربياً ويتمتعون باحترام زائد بحيث أن النساء بدلاً من تجنبهم يتكبدن أحياناً الكثير من تصرفاتهم الشاذة في الطريق العام ، ولا يشعر العامة بأى عار من هذه الأعمال التي يندرج ذلك حدوثها . ويرى آخرون لا يبين مرقعة مختلفة الألوان تسمى «دلق»<sup>(٢)</sup> وهو مزين بالحرز ، ومممين بصفة بالية وحاملين عصا شبك في أعلاها سيائب نسج مختلفة الألوان ، ويأكل بعضهم اللبن أو خليطاً من اللبن والزجاج المكسر ويلفتون النظر بأعمال غريبة مختلفة .

(١) كما هو الحال أيضاً في سويسرا

(٢) وتطلق أيضاً وعلى الأصح «دلق»، إلا أن العامة ينظفونها كما سبق

وكثيراً ما قابلت أثناء زيارتي الأولى في شوارع القاهرة رجلاً زرى الشكل عارى الجسم تقريباً مضفر الشعر طويلاً ، راكباً حماراً يقوده رجل آخر . فيقف دائماً حماره أمامي مباشرة بحيث يقطع على الطريق ويقراً الفأحة ، ثم يمد يده للسؤال . وقد حاولت أن آتجبه في أول مرة ؛ إلا أن أحد المارين حذرنى ملاحظاً أن الرجل ولي ، وأن على أن أحترمه وأن أمنحه ما يريد حتى لا تصيبني مصيبة . ويتمشيت رجال هذه الطبقة على الصدقات التي كثيراً ما يتناولونها دون سؤال . ويسمى القديس المشهور « شيخ » أو « مرابط » أو « ولي » ، ويسمى أيضاً على الأصح إذا كان به بله أو جنون أو خبل « مجنوب » أو « مسلوب » . وتطلق عبارة « ولي » بدقة على القديس التي السامى فقط ومعناها المختار . إلا أنها تطلق عامة على البله أو التباهين ، حتى أن بعض الأذكياء جعلوا لفظ الولي معادلاً لفظ « بليد » ، ملاحظين أن تينك العبارتين متساويتا المعنى والقيمة المدنية للحروف المكونة لكل منهما . إذ أن « ولي » مكونة من الواو واللام والياء ، وقيمة كل على التوالي ٦ ، ٣٠ ، ١٠ أى ٤٦ و « بليد » مكونة من الباء واللام والياء والذال وهي على التوالي ٢ ، ٣٠ ، ١٠ ، ٤ ومجموعها ٤٦ ، وكثيراً ما يسمى النبي ولياً للدعابة .

ويعتقد مسلمو مصر وغيرها من البلدان اعتقادات باطلة عميقة بالأولياء . وقد حاولت أن أستفهم عن أكثر هذه الاعتقادات غموضاً فكان الرد على : « إنك تتدخل في أمور (الطريقة) » أي منهج الدراويش الديني ؛ إلا أنني وقفت على كثير من الآراء العامة في هذه الموضوعات . وأظن أن ذلك هو كل ما يطلب تقريره في كتاب مثل هذا . وسأرد مع ذلك أقوال بعض المتعلمين والدراويش فيما يتعلق ببيان إيمان العامة

وكل من يرتاب في وجود الأولياء يرى بالروق ويتلى للحكم عليه نص القرآن : « ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون » . ويعتبر هذا النص كافياً للدلالة على أن هناك طبقة من الأفراد متميزة على البشر العاديين . وقد تساءل

ذلك أن سطح الكعبة مركز القطب الرئيسي . ويضرب هذا المجهول الموقر مركزاً آخر يباب القاهرة المسمى باب زوية ، وهو في الطرف الجنوبي من ذلك القسم الذى يكون نسبة القديمة وإن كان في قلب البلد الآن ؛ فقد امتدت ناحية كثيراً نحو الجنوب والغرب . ويسمى العامة باب زوية « باب التولى » (١) لاعتقادهم أنه مركز هذا الكعبة المجهول . ومن وراء أحد مصراعى الباب العظيم الذى لا يخرج أبداً فضاء صغير يقال إنه مكان القطب . ويقرأ الكثير من اللارين الفاتحة ، ويتصدق البعض على سائل يجلس هناك ، ويعتبره الرعاع أحد خدام القطب . ويدق المصابون بطنع مسباراً في الباب لفك السحر ، كما أن المصابين بوجع الأسنان يخلعون سنناً ويولجونها في أحد شقوق الباب أو ينصفون به بأى حال آخر حتى يضمّنوا عدم إصابتهم بالمرض نفسه . وكثيراً ما يحاول بعض الفضوليين الاختباء وراء الباب آمليين عبثاً اختلاس النظر إلى القطب لعله يظهر هناك . وللقطب في مصر مركز أخرى أقل شهرة . أحدها في قبر السيد أحمد البديوى بضط ، والآخر في مدينة المحلة وغيرها . ويعتقد أن القطب ينتقل من مكة إلى القاهرة أو من مكان إلى آخر في لحظة . ولا يقتصر القطب على سكنى أما كنه المدينة المفضلة وإنما ينتقل في أنحاء العالم بين جميع البشر من مختلف الأديان متخذاً شكلهم ومبهم ولقهم ويوزع عليهم بواسطة أتباعه الأولياء أحكام القدر من وقها . وحينما يموت قطب يتولى غيره مكانه في الحال

ويروى الكثير من المسلمين أن إلياس ، ومخلطه الصمة بالخضر (٢) ، كان قطب زمانه ، وأنه يوتى الأقطاب للمتقين

(١) عوضاً عن باب التولى

(٢) لم يكن الخضر حسب رأى العلماء رسولا وإنما كان رجلاً صالحاً . كان وزير ذى القرنين الأول ومستشاره ، ولكنه على حد سواء رجل متيسر في أمره معاصر ليدنا إبراهيم ، ويقال إن خضر شرب من ينبوع الحياة وهو تلك حتى حتى يوم الحساب ، وأنه يهر كثيراً للمسلمين في حيرتهم ، ويلبس الخضر اللباس الخضراء ومن ذلك اشتق اسمه

من هم هؤلاء الأشخاص أو ما حالهم .؟ والرد على ذلك أنهم أشخاص قصروا أنفسهم على عبادة الله واحتفظوا بإيمان صادق ، ومن الله عليهم بالقدرة على فعل الكرامات تبعاً لقوة إيمانهم (١) يسمى أقدس الأولياء « قطباً » ، ويحمل هذا اللقب — على رأى بعضهم — رجلاً ، ويقول البعض الآخر أربعة . وتسمى عبارة « قطب » عوراً ، ومن ثم أطلقت هذه الكلمة على الولي الذى يثق به الناس ويتبعونه ، ويطلق هنا اللفظ للسبب نفسه على الحكام الزمنيين أو السادة الأجلاء . وقد أُخبرت أن رأى القائل بأربعة أقطاب خطأ شائع ، أصله توالى ذكر عبارة ( الأقطاب الأربعة ) التى تشير إلى موسى أشهر الطرق الصوفية الرفاعية والقادرية والأحمدية والإبراهيمية ؛ ويُعتقد أن كلاً من هؤلاء كان قطب زمانه ؛ وقيل لى أيضاً أن رأى القائل بقطين خطأ غم أساسه اسمان : ( قطب الحقيقة ) و ( قطب النور ) ، لا يختص بهما على الأصوب غير شخص واحد فقط . ويطلق الذين يعتقدون بوجود قطب واحد عليه عبارة ( القطب المتولى ) وهو الحاكم الآن ، والذين يعتقدون بوجود قطين على القطب العامل . ويحكم القطب الذى يراقب الأولياء جيمهم ، سواء أكان هناك قطب آخر أم لم يكن لأنه إذا وجد يكون دون الأول ، أولياء متفاوتى الرتب يقومون بأعمال مختلفة مثل التقاء والأنجاب والأبدال الخ ؛ وهم يعرفون وظائف بعضهم بعضاً ، وقد يعرف ذلك الأولياء الآخرون

وقال إن القطب كثيراً ما يظهر ولكنه لا يعرف . وكذلك أتباعه ذور السلطة .

ومع أن القطب يخفى دائماً فإن أماكن وجوده معروفة ، ولكنه قليلاً ما يظهر فيها . والمعتقد أن القطب يكون فوق الكعبة . وهو يصيغ مرتين في جوف الليل قائلاً : « يا أرحم الراحمين » ، فيردد المؤذنون حينئذ ذلك الدعاء من مآذن الكعبة . وقد سألت حاجاً فاضلاً في هذا الموضوع فأقر لى أنه رأى بينه إماماً مرتباً ليصيح هذه الصيحة . ولا يعرف ذلك غير القليل من الحاجج . ويعتقد مع

(١) ويسمى ما يقوم به الولي من عجائب « كرامة » وما يأتي الرسول « معجزة »

فتوسل إليه أن يساعده على التشرف بمقابلة القطب . وبعد أن احتفل الطالب امتحاناً صارماً لمعرفة بواعثه طلب منه أن يتوضأ مبكراً في الصباح التالي ثم يقصد مسجد المؤيد حيث يوجد بإحدى زواياه باب زويلة أو المتولى السابق ذكره ، فيقبض على أول من يراه خارجاً من الباب الكبير لهذا المسجد . وفعل الرجل ما قيل له ، وكان أول من خرج زجل شيخ مهيب المنظر ولكنه رث الثياب يلبس زعبوطاً من الصوف أسمر اللون ، وقد دل ذلك على أنه القطب . فقبل الطالب يده وتضرع إليه أن يقبله بين أصحاب الدرك . فقبل القطب التماسه بعد تردد طويل ثم قال : « التزم القسم الذي يشمل الدرب الأحمر<sup>(١)</sup> وما يجاوره » . وفي الحال وجد الطالب نفسه ولياً ، ولاحظ أنه يعرف أشياء تخفى على البشر الماديين ، إذ يقال إن الله يعلم الولي جميع الأسرار اللازم معرفتها . ويقال عادة إن الولي يعلم الغيب ويسد هذا مناقضاً لما قرأه في عدة مواضع من القرآن إنه لا يعلم الغيب غير الله . إلا أن المسلمين وهم قلما يرتكبون في مناقشة ما ، يبينون أن عبارات القرآن يقصد بها معرفة الأسرار بمعناها المطلق وأن الله يطلع الأولياء على مثل هذه الأسرار كلما شاء ذلك

\*\*\*

استدراك : وردت المقالة السابقة تابعة للفصل التاسع ، والصواب أنها ابتداء الفصل العاشر : « الحرفات »

( يتبع )

عبدالله طاهر نور

(١) وهو شارع يوصل من باب زويلة إلى الجنوب الشرقي ويكون جزءاً من الشارع الكبير التي تمتد إلى الغلطة

إذ يقولون أنه لم يمض ويزعمون أنه شرب من عين الحياة . ويبدو أن اعتقادهم في القطب مأخوذ مما قص علينا في التوراة عن إلياس ورفعه إلى السماء ، وانطلاقه من مكان لآخر بحمله روح الله ، ومنحه أليسح سلطته الخارقة للعادة وتقليده إياه وظائفه ، وخضوع الرسل الآخرين له ولوليه المباشر<sup>(٢)</sup> . وينبذ بعض الأولياء لذات الدنيا وسحبة الإنسان ويمكفون على التأمل في السماء وينتصتون للصلاة متوكلين على العناية الإلهية لسد حاجتهم ، إلا أن خلوتهم تعرف فيحضر العرب لهم الطعام يومياً . وهذا يذكرنا مرة أخرى بقصة إلياس إذا وضعنا كما يرى بعض الناقدين ، كلمة (عرب) بدلاً من لفظ (عربان) في الآيتين الرابعة والسادسة من الإصحاح السابع عشر من سفر الملوك الثاني : « وقد أمرت (العرب) أن تمولك » ، « وكانت (العرب) تأتي إليه بخبز » ويقال إن القطب يكلف بعض الأولياء القيام ببعض الأعمال الشاقة حسب قول محدثي ، ويقال لهؤلاء الأولياء (أصحاب الدرك) ، وقد فسرت لي هذه العبارة ، ولا أعلم على أي أساس ، بمعنى المراقبين<sup>(٣)</sup> . وقد حكى لي الحكاية التالية لبيان وظائف هؤلاء قال : اشتدت رغبة أحد تجار هذه المدينة الأتية في أن يصير ولياً ، فتوجه إلى آخر ينتمي لهذه الطبقة المقدسة

(١) أنظر سفر الملوك الأول الإصحاح ١٨ آية ١٢ وللوك الثاني الإصحاح الثاني ٩ - ١٦

(٢) ويوافق هذا التأويل تفسيراً ذكره كاترمير Quatremère لكلمة (درك) في كتابه تاريخ السلاطين للملك Histoire de Sultans Mamelouks الجزء الأول ص ١٦٩ وقد استخرج هنا التفسير من مقابلة عدة عبارات جاءت بها هذه الكلمة

## اعلان

يلتزم مجلس علي منيا القمح ققدان  
ثلاثة قسائم ييطرى أصل وصورة من  
نمرة ٢٤١٤٥ إلى نمرة ٢٤١٤٧ وقد  
اعتبرها المجلس ملغاة وكل من يستعملها  
للحصول بها على أموال أميرية أو خلافه  
يكون عرضة لعقوبة الجنائية ١٢٧٤

## ملاحم المحمدي العرافي

للدكتور زكي مبارك

كتاب يصور العراق في مذاهب الأدبية

والثقافية والاجتماعية والقومية

يظهر في الأسبوع المقبل